

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ^(١)

[نلفت القراء إلى هذا الفصل الذي يذكرهم بأصول البلاغة العربية القديمة حين كان بشر بن المعتمر وأبو هلال وعبد القاهر يدعون إلى أن تدل كل كلمة على معناها الدقيق ، وإلى أن يكون لكل كلمة مع صاحبها مقام .]

قرأت لشاعر أقصوصة عجيبية ، تخيل فيها أن بعض الأشخاص القاطنين في الحواضر من هؤلاء الذين ليسوا أهلاً للوجود ، والذين انعدمت شخصيتهم فهم لا شيء ، ينتهزون فرصة العدد الكبير من السكان الذين تزدهم بهم هذه المدن ، فيندسّون وسط الجمهور ، ويتظاهرون مفلحين بالاستمتاع بحظ من الوجود الواقعي لا يقل عن حظ أولئك الذين يسايرونهم . فهم يتجولون ويشغلون أنفسهم ويسرون سيرة غيرهم من الأفراد الذين من حولهم حتى إنهم يخذعونهم في يسر . ولكن القاصّ يذكر أن العين المتدربة تستطيع تبينهم ، وأن في مطاردتهم عندئذ كثيراً من التفكه . وحين ينكشف أمر هذه الظلال الطامحة ، تسعى إلى الفرار ، وهي تتجهّد وتُسْعَمُها في الإفلات من متبعتها مستعينة على ذلك بكل الوسائل . فتخترق الحوانيت الكبرى ، تدخل من باب وتخرج من آخر بعد أن تكون قد حاولت الاندماج في غمرة المشترين ، أو

(١) صاحب هذا المقال روجيه كايوا من خريجي مدرسة المعلمين العليا بباريس . انضم في أول حياته الأدبية إلى أصحاب مذهب السوربازم ، وما لبث أن هجرهم وقطع الصلة بينه وبينهم فأخذ يدافع عن ضرورة خضوع الأثر الأدبي للفكر والنظام ، وعن ضرورة التشدد والزهد في الأدب ، وهو في هذا يخاصم أيضاً المذهب الرومانتيكي . وقد عين أثناء الحرب الماضية مديراً للمعهد الفرنسي للآداب في الأرجنتين ، وبقى طوال الحرب في هذا البلد حيث أنشأ مجلة « الآداب الفرنسية » التي ذاع صيتها وكان لها أثر كبير في أدب أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . لم يكتب قصصاً أو شعراً ، وآثاره الأدبية كلها تعتبر على الحدود بين الأدب والفلسفة والنقد .

تستقل مركبة تنزل منها أثناء سيرها في وقت لا يمكن أن تتوقع فيه النزول . وهي تدخل منازل ذات منفذين تكون قد استدلت عليها من قبل . ومجمل القول أنها تلجأ إلى كل حيلة قد تكفل الهرب . على أن المهم ألا تغيب عن بصر الذين يقتفون آثارها . فإذا أقبل المساء كانت هذه الأشباح منهوكة القوى وأخذت تقلع عن الجهد . حينئذ تترك الأماكن المكتظة التي يكثر فيها تردد الناس ، والتي كانت ترجو إلى ذلك الوقت أن تضيع فيها ، وتسعى متجهة نحو الضواحي . هنالك تؤثر أن تسلك الأزقة المظلمة الخاوية ، وقد كادت تشف أجسامها — إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « أجسام » بالقياس إليها — وأحاط بها شيء يشبه أن يكون إطاراً « مضيئاً » وكأنها تضمحل . لقد أدركت نهايتها . ويعتمد الشخص منها نجاة على حائط فيختفي على الفور ، ولا يبقى على الجدار إلا بقعة عفنة تتخذ من بعيد جداً شكلاً إنسانياً .

١ — الألفاظ والمعاني

ولا إخال الاقصوة تخلو من المغزى خلواً تاماً . فإن لم تصدق بالقياس إلى الناس فهي صادقة بالقياس إلى الألفاظ التي تجري على ألسنتهم . ولطالما استعملوا هذه الألفاظ ، واستعملوا قدرأ كبيراً منها ، منذ ذلك اليوم الذي أخذوا فيه يتحدثون ويكتبون ، مدفوعين دائماً إلى استحداث الجديد منها . وهم في تسرعهم يستخدمون هذا اللفظ أو ذاك دون تمييز بينهما . ولقد نشأ عن ذلك كله ظهور ألفاظ كثيرة لا تغنى شيئاً . وهذه الألفاظ تسير ، شأن غيرها ، وتتألف مثلها من حروف تتجمع في مقاطع ، وتثبت في المعاجم ، شأن غيرها أيضاً . على أن وجودها زائف خداع ؛ فهي لا تنمو ولا تنجح في نموها إلا بفضل غفلة عامة ؛ لأنها لا تمثل حقيقة واقعة متميزة عن غيرها ، أو فكرة واضحة محدودة يمكن تعريفها تعريفاً لا يحتمل اللبس ويظفر بموافقة إجماعية . ولكنها مع ذلك تبعث الهم مادامت لم تعصر ، وقبلما تعصر . لذلك يظل كل إنسان مطمئناً إلى أنها ملأى مثل غيرها ، لا فارغة كما هي في الواقع . ثم إنه يستحيل إلغاؤها إلغاء تاماً ؛ لأن الخدعة لا تحب العزلة . فليست هذه الألفاظ معينة متميزة يمكن أن تعرف لنحكم عليها ، بل هي خاتلة غدارة لا يمكن أن تأخذها اليد ، تستخفي

وراء مقطع من هذه المقاطع الإضافية التي توضع في أول الكلمة أو في علامة من تلك العلامات التي تلحق بآخر الكلمة . ومصدر الكلمة لا يثير خشية ولا ريباً ؛ فهو معروف قد فهم معناه منذ نشأ . وهذا هو الذي ينم الريبة ، لأن كانت قد استيقظت . غير أن كل اشتقاق يخفى شركاً ؛ فهو في أول الأمر مظهر من مظاهر العمل الفكري يوسع المعنى ويبسطه بسطاً قد لا يكون ملائماً حين يقع ، ولكته يولد فيما بعد نوعاً من الغش يصعب كشفه . وقد يخرج اللفظ عن الحقيقة إلى الجاز كما يقال ؛ فتكون الخدعة هذه المرة في الاستعارة أو في نسيانها بعد حين لكثرة الاستعمال ، وهذا سريع الحدوث . فهذه الوسائل وكثير أخرى غيرها ينشأ منذ أول الأمر بين الألفاظ وبين ما تعني علامات مربية غير محدودة . فالألفاظ تتوالد ، كما تتوالد معانيها ، على مدى أوسع حتى يستحيل التمييز بين تلك التي تدل على شيء من الحقيقة الواقعة وتلك التي وجدت كأنما هُربت تهرباً . ويزداد الأمر خطراً على مر الزمن . وحين تكتسب الألفاظ هذا القدر من الأهمية تتخذ وسيلة للتعرف على الأشياء واختبارها ، تقوم في ذلك مقام الأشياء نفسها . فهي تفرض نفسها على أذهان ساذجة وتكاد تشغلها إطلاقاً فتخفي عليها الواقع بدلاً من أن تيسر لها سبل التعبير عنه . وهي تغمر هذا الواقع وتفسده ، وتخلط كل شيء ، وتجمع تحت عنوان واحد كاذب أشياء متنوعة وأفكاراً متباينة لا يربط بينها إلا الإشارة إليها برمز واحد . وهذا الرمز ليس من شأنه إلا التضليل ؛ إذ أنه يخيل وجود روابط وعلاقات بين الأشياء ليست قائمة في حقيقة الأمر .

والشخص الذي يستعمل لفظاً قلما يفكر في تحديد معناه . وهو إذ يتحدث أو يكتب يدل به على معنى ثم على آخر ، ولا يقدر أن هذه المعاني لا يمكن الجمع بينها . وكلما زاد اللفظ إيهاماً سهل عليه إدراجه في حديثه . وحتى إذا جهل مداه جهلاً تاماً فليس ما يمنعه من استعماله حسبا يرغب دون أن يتقيد بأي حال ولا يقف أي اعتراض في سبيل اندفاعه . لذلك كثيراً ما نرى أشخاصاً يلذ لهم أن يجمعوا في آلاف من الجمل الرنانة ألفاظاً يظنونها تقيض سحراً ، ولكنهم يعجزون عن تحديد ما تنطوي عليه من معنى لو طلب إليهم ذلك . وكأنهم ينظمون ألواناً من الخرز ، فأى رادع يقف في سبيلهم ! وهم يرصّون ألفاظاً منقادة طيعة لا تحقق شيئاً ، ولا يجد فيها العقل معنى يثبت له بحيث يستطيع

أن يتعلق به ، كما أنه لا يلقى فيها المقاومة إن أراد أن يشتد عليها في النقد والتحليل فليست إلا أصواتاً أو مجموعة متلاحقة من الحروف تختلف معانيها باختلاف الحاجة التي تدعو إليها . ولا شك في أن هذه الطوعية تجعل من السيرجداً على فكر حاذق نشيط أن يجمع بينها في غير تحرّج ، وهو ينظمها حسبما يحضره من خاطر ، لا يكلف نفسه لحظةً عناء السؤال عن المعنى الذي يؤديه وهذا الإهمال نفسه يصبح مصدر حريته التي تتيح له هذه السهولة والتي قد توهم الذكاء ، وما هي إلا تألق زائف وتسلط كاذب يشبه القبض على الريح . وقد يكون هذا الذهن الرخيص باهراً خلافاً ، فحسبه ألا يفكر ؛ لأن كل تفكير يقلل من نزواته وقد يحرم عليه إبداء الرأي ويضطره إلى الاحتياط ، وهو يظهره على مصاعب في الأشياء والأفكار لم تكن لتظهرها له ألفاظه الجوفاء التي لا تدل على شيء . ولو قد ظهرت له وكان أميناً تزيهاً لنزل من غروره عن شيء كثير ولا بد من شيء من الخلق المتين ليمتنع الإنسان عن تكلف الذكاء ، وليحاول أن يكون ذكياً بالفعل دون أن يتعمد إظهار ذلك إلى حد ما . على هذا النحو وحده أستطيع أن أفسر ذلك الميل الذائع الذي يدفع بعض الناس إلى استعمال ألفاظ لا يدركون معناها تمام الإدراك . فليس لذلك مصدر إلا أنهم في مثل هذه الحالة أقل تبرماً بالألفاظ مما لو فهموا معانيها . فاذا قيل : مائدة ، أو ألم ، أو خبث ، فهم كل امرئ ما تعنى هذه الألفاظ ؛ لأنه خبر هذه الأشياء خبرة كافية ، فليس خداعه عنها سهلاً . ولكن إذا قيل « استدلال » مثلاً أو « سُمُو » فجال الحرية واسع أمامنا ، ويتعرض كل واحد منا لاختلاط الأمر عليه والاندفاع إلى الخطأ والانخداع . فاذا ذكرت « العدل » أو « الحرية » دون أن تبين ما تريد من ذلك ، فكل شيء يباح لك ، حتى أن تطلق هذين اللفظين على الظلم والظغيان ؛ إذ أن قوام كل أمر متروك إلى تعريفه . ومن ذا الذي لا يذكر أن بعض الغزاة استعمل لفظ الحماية يدل به على الإخضاع والإذلال ، وكان التحليل ظاهراً ، فلم يضل أحداً ! ولكن لا أخاف هذا التضييل المكشوف ، وإنما أخاف التهور الساذج والمظاهر المختلفة التي تتخذ في غير شعور . وهذه المظاهر مع الأسف موجودة دائماً في كل مكان ، فما نكاد ننظر في أية صحيفة حتى نراها ماثلة في كل مكان . وواضح أن هنا على الأقل إعراضاً عن طوعية ورضا عن استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية . أصدر هذا عن سذاجة أم عن دهاء ؟

لعله صدر عن الأمرين جميعاً . إذ الدقة موضع سخر لأنها لا تظفر بريح ، على حين تستغل بعض الألفاظ لما توحى به من غواية وإغراء . وقد تحدث فكتور هوجو عن « خطاف أشهب » . . . كذلك نراهم يتحدثون عن « الحب المستقل للوطن » . . . وليس للعبارة معنى ، ولكن ما الحرج في ذلك ؟ فالذي يستعمل هذا اللفظ هنا يريد أن يكسبه الدلالة التي يشعر أنها لازمة له في عبارة « قيمة مستقلة للأشياء »

وهذا النحو هو الذي ينحوه التاجر حين يعلن أن بضاعته « ترف اقتصادى حقا » ، وهو الذي ينحوه أيضاً رجل السياسة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتقى العدوى كل الاتقاء ؟ والحق أن الإنسان يجد نفسه أمام مغامرة غريبة خطيرة ، وهى استعمال الألفاظ ، لا لما تدل عليه من معنى ، بل لما تحدثه من أثر .

٢ — العبارات

ويزداد الخطر حين يؤلف بين الألفاظ ؛ فإني إذ أستمع الناس يتحدثون عن « الأمم الشابة » أرانى حائراً مرتبكاً . ولست أجهل ما يقصد بالشباب عند فردبولد وينمو ويهرم ثم يموت ؛ فهذا التحوّل مرسوم رسمياً واحداً نهائياً بالقياس إلى مختلف الأفراد . إذ أن الذى يقصد بالشباب مرحلة محددة تمهيداً دقيقاً من مراحل تطور مستمر . ولكن حين نطلق هذا اللفظ على أمة يلتبس الأمر فوراً : أيراد بالأمّة الشابة الأمّة القريبة العهد بدستورها ؟ أم تلك التى نشأت حديثاً فاحتد بها الشعور الوطنى وكان فيها أشد حساسية منه فى غيرها ؟ أم يقصد بها الأمّة التى ارتفعت فيها نسبة الشباب بشكل واضح وانخفضت فيها نسبة الشيوخ بشكل واضح أيضاً ؟ أم يراد بهذا اللفظ أن الذين يتولون شؤونها ويشغلون المراكر الأساسية بها فى سنّ الشباب ، فاذا لم يكونوا شباباً فى السن أظهروا على الأقل حدة الشباب وحماستهم واقتحامهم للصعاب وميلهم إلى المجازفة وغير ذلك من الصفات التى اتفق على نسبتها إلى الشباب ؟ أم يراد بذلك أيضاً أن السلطان السياسى والاقتصادى للأمّة فى مرحلة من النخوة والتوسع بحيث ينافس الدول التى سبقته فى التوطد منافسة جديدة خطيرة ؟ لا يمكن الاختيار بين كل هذه المعانى ، ومع ذلك فلن يقطع أحد بأن كل هذه الخصال يجب أن تلتقى فى

وقت واحد في هذه العبارة . وليس ما يدل على أنه لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض . كان ينبغي إذن التمييز بينها لو أريد ذكر شيء دقيق يسنده الواقع ويكفله . ولكن هل أريد ذلك ؟ فالسحر يتلاشى حين نعود إلى حصر المعنى في تحديد دقيق ؛ لأن الأمر لا يعدو حينئذ بيان بعض مزايا ضئيلة أو غير مؤكدة ، كما لو قصدنا بالعبارة أن تلك الأمة حديثة التكوين ، أو أن أفرادها حديثو السن ، أو أن مقاليد الحكم بها في أيدي فتیان يافعين أو مجترئين ، أو أن يكون اقتصادها مزدهراً مبسوط النفوذ . في حين أن الوصف بالشباب يكفل تقوفاً مطلقاً وحاسياً لا جدال فيه ؛ إذ الجدل لا يمكن أن ينصب إلا على موضوعات محدّدة

فلفظ « شاب » هنا لا يعبر عن واقع ، بل يعنى تفوذاً يتلاشى ويتبدد إذا ألحنا في تحديده ، أى إذا التمسنا له تفسيراً دقيقاً ، لأنه لم يكن يعبر عن شيء ، بل كان أشبه « بشيك » لا يقبله رصيد . ولا يفكر أحد مع الأسف أن يقدم هذا الشيك إلى البنك ، يمنع الكسل من ذلك ؛ فهو يحوِّله مغمض العينين إلى غيره من الاغرار . وتداول مثل هذه العملة من الورق يزداد باستمرار ؛ لأن هذه القيمة الباطلة تتوالد بسرعة مروعة . وبالتدرّج تقل العادة في المقابلة بين هذه الاشارات الزائفة ، وبين الأمور أو الآراء التي يتصوّر أنها تمثلها . ولا يعبأ بإدراك الأشياء نفسها ومعرفة خواصها ، بل يجمع على سبيل المصادفة إشارات لا حول لها ولا قوة ، وليس لها إلا أن تطيع . . . وأن تضلل .

كنت أقرأ ذات يوم هذا التعريف للرجل السياسى البارع : « الرجل الذى يرى الأشياء كما هي ويرسم خططه وفقاً لها » . هذا التعريف لا يضارع ، بشرط ألا يخطر على البال أن المعلومات التي يجب أن يلم بها الرجل السياسى من التعدد والتعقد بحيث يخرج عن مقدور الفكر الإنسانى إمكان الوصول إلى رؤية الأشياء كما هي .

فهذه العبارة نفسها تحير الفكر وتربكه . فهل تحتفظ بمعناها حتى حين لا يرد بها — كما هو الحال هنا — أشياء معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، بل حالات واتجاهات ومصالح ومجموعة من العناصر غير الثابتة وغير المحددة التي تختلف حتى طبيعتها العقلية باختلاف الطريقة التي ترسم بها حدودها ، بل أكثر من ذلك

باختلاف الأهمية التي تضاف إليها ؟ فإن هذه العناصر رهينة أحياناً بمقدار ما نعلق عليها من اعتبار ، فهي تصبح حاسمة إذا خيفت ، أو مهمة القيمة إذا احتقرت . ومثل هذه الأشياء المزعومة ليست موجودة . أريد أنها لا توجد وجوداً صلباً ثابتاً كما يوحى بذلك لفظ « موجود » أو لفظ « شيء » . على أنها حتى لو تمتعت بهاتين الصفتين فلن يستطيع الرجل السياسي أن يراها بالضبط كما هي إلا أن يكون إلهاً . وعلى أى حال فسيرها كما تظهر له ، وستظهر له على الصورة التي يستطيع أن يراها بها وعن طريق مزاجه وعاداته ومعتقداته ومخاوفه وآماله ، أى عن طريق جميع مشيرى السوء الذي يفسدون الحكم ، والذين لا يستطيع أى فرد أن يتخلص منهم تخلصاً كاملاً . وعلى ذلك فالسياسى البارع سيرى الأشياء على نفس النحو الذي سيرها السياسي الرديء ، كما لمح بذلك مؤلف الكتاب الذى استقيت منه التعريف . ألا يوجد إذن أى اختلاف بين هذا وذاك ؟ لا شك أن بينهما أوجه خلاف . فهذا أشد حرصاً فى القرارات التي يتخذها ، وذاك أكثر طلاقة . أحدهما يخضع فى يسر لما توصى به مقتضيات الواقع ، والآخر ينقاد لغريزته وشهوته ، ويختل إليه فى حسن نية أن جميع الظروف تعضد مشروعه . ولكن كليهما معرض لنفس الأخطاء تعرضاً متفاوتاً . ولا يلاحظ بينهما إلا اختلاف فى الدرجة ، على حين أن التعريف الذى أسمى يزعم لإيجاد اختلاف فى الطبيعة . وقد يقال لى : « ألا تستطيع أن تطرح جانباً هذه الدقائق ، فتغفر للغة عدم إحكامها البرىء الذى لا يغير الأشياء فى مجموعها بحال ؟ ما بالك توجد هنا تمييزاً بين الدرجة والطبيعة ؟ إن هو إلا تمييز فقهي » . وأنا أرجو المَعذرة ، فما أزال مصرّاً على تشددى ؛ لأنى أعلق أهمية خطيرة على أن تكون التفرقة فى الدرجة لا فى الطبيعة . فلو أنها كانت فى الطبيعة لما جاز لى أن أقول شيئاً ، ولأصبح السياسي البارع ذلك الذى وصف ، أى ذلك الرجل الذى منح بصيرة إلهية لا يعوضها شيء ، على حين يبدو الآخر على هيئة رجل بأُس يتجه حتماً نحو الإخفاق ، ومصيره أن يلبث فى الظلمات الخارجية مدى حياته كلها . أما إذا كان الاختلاف فى الدرجة ولم يقصد إلا زيادة فى الدرجة أو نقصان ، فإن التعريف تسقط قيمته على الفور ؛ لا لأن نظرة الرجل السياسي قد تكون حسب الظروف أقرب إلى الموضوع وأشد مطابقة له أو أبعد عنه وأقل مطابقة له ، وأنه يستطيع على أى حال أن يصلح هذه النظرة إذا أظهر على خطئه ، بل لأن من

المشكوك فيه أن الكمال يعتمد على فطنة ممعنة في الحذق وعلى مجموعة كاملة وافية من البيانات الصحيحة ، بل قد ينشأ ، على العكس من ذلك ، من مزج بين بعض الامتثال للظروف وبعض الحماسة ! هذه الحماسة التي تدفعه من ناحيته إلى عدم التعلق بأشد البيانات دلالة حين تفرضها هذه الظروف . ولا أقصد أن هذه الحماسة تستند على نوع من الإدراك أو الإيحاء ينبئ العبقري أن ليس أمامه هنا أكثر من مجرد مظهر بسيط لا يخفى شيئاً ، فإن الأمر لا يعدو في هذه الحالة أن يكون تعمقاً في الفطنة ، وإن شئت فقل نتيجة لنظرة إلى الأشياء أشد نقاداً . أعني بذلك أن حماسة الرجل السياسي وإرادته وذكاءه ومناوراته ومنابرته كثيراً ما تنجح في تغيير الظروف نفسها ، وهي في الواقع قابلة للتشكيل والتحويل ، وتتألف من نسب قابلة للتعديل ، ومن قوى تعمل للذين يعرفون كيف يأسرونها واثقين بها . وجغرافيا الرجل السياسي المتسعة لا تقتصر على مجموعة معقدة من الجداول والقيم والممرات الضيقة ، بل تشمل أيضاً جبالا شاخمة تبدو مستقرة ثابتة حتى يقوم إيمان عنيف غير قابل للتفسير ، ولا يمكن أن يتنبا به عقل أو منطق ، فيدفعها إلى الحركة . ويطلعنا التاريخ على كثير من هذه المعجزات الظاهرية ، وكثيراً ما رأينا في المسائل الانسانية المرنّة السهلة الصياغة أن التعصب يصل إلى تحقيق غاياته حيث يعجز عن ذلك العلم وصواب الحكم النافذ . وأحياناً يرجع التغلب على الصعاب إلى إنكارها وعدم الاعتراف بها ، أو إلى الاندفاع العنيف الذي يغمر عيني البطل بقدر يجعله لا يكاد يراها ، ويمنحه بذلك حظاً من البأس يعينه على قهرها . وطبيعي أن المقصود ليس الاندفاع مع إغفال كل عامل ، فقد يعثر المتحمس عشرة سخيفة ويتحطم كالزجاج ، لأنه إزاء صعوبة ما لم يقدر ما تنطوي عليه من مقاومة حق قدرها . لذلك كنت أقول إن الخير في مزاج يلائم بين مقادير من العوامل المختلفة . وتعريف المؤلف الذي ذكرته لم يكن ليشعر بذلك ، بل كان يستبعد حتى مجرد التفكير فيه . إنما المهم في رأيي هو هذا . كما أن المهم أن يظهر أن هناك فارقاً بين الاختلاف في الدرجة والاختلاف في الطبيعة . ولم أكن أناقش في هذه العبارة إلا معناها لاسداد حكمها ؛ لأنني أريد أن أبين كيف أن الألفاظ تفر . فليس يعني أن أتحقق من دقة التعريف أو قصوره ، ولو أنني حاولت ذلك لاضطرت إلى العدول عنه فوراً . لأن مرجع الأمر ما يقصد بالسياسي

البارع : أيقصد به الماهر ؟ أم الأمين ؟ أم الخير ؟ وهل مقياس ذلك نجاح مشروعاته أو سمو خلقه أو حسن ما يبلغ من النتائج ؟ ووجهات النظر الثلاث لها ما يبررها . ويمكن إذن الاعتماد على كل منها وتعريف السياسى البارع على أن اختيار أحدها دون سواها يكون موضع نزاع لا ينتهى . ومن ذا الذى يأخذ نفسه بذلك .

٣ - فروع اللفاظ

على أن الجملة المذكورة كانت خلاصة المظهر ، كانت منسجمة تلذ السمع ، ولكنها لم تشتمل إلا على ألفاظ لا تصلح لاداء المعنى ، وعبارات لاحظ لها من الإفصاح . وقليلة تلك الجمل التى لا يخلب مظهرها ، غير أنه ليس من المستطاع تحليلها جميعاً . لكن ذلك واجب ، فليست هناك علامة خارجية تميز الجمل التى لا تنطوى إلا على ألوان من الاضطراب والسراب عن غيرها . فهي حسنة التركيب ، تتألف من ألفاظ عادية ، وتخضع فى نظامها لقواعد النحو المألوفة . وهى تملأ الحديث والكتابة ، وكل منا يسمعها ويردها ، ولا يلبث أن يؤلف غيرها دون أن يعنى بتحليلها كما ينبغى ، شأن موظفى الجمارك الذين يتعذر عليهم فتح جميع الحقائق ؛ وهكذا تمر باستمرار بعض المهربات الضئيلة . ولكن إذا ما توقف ذهن يقظ لحظة عن القراءة أو الكلام أو الاستماع ، وحاول أن يختبر الألفاظ التى يستعملها أو مشتقاتها المختلفة ليعرف ماذا تعنى وأية حقيقة واقعة زعم التعبير عنها ، هنالك ينهار كل شئ ، وينكشف البهرج الذى لم يكن يخفى إلا غروراً أجوف . ولم يكن الكلام إلا بناء غير متين أسبغ عليه غشاء يخدع الابصار عنه طلاء غليظ . وكان الفكر المتسرع أو الغافل قد قدر أن له معنى ، لأنه اعتاد — وهذا هو الخطر — أن يقنع بالألفاظ المألوفة التى لا يصدمه فيها سحف ظاهر . فقد يكون عسيراً أن تبدو على الألفاظ سخافة . وأيسر من ذلك أن تأتلف ألفاظ لا يؤذى الجمع بينها ، بل يدعو بعضها بعضاً ، وتسرع بنفسها إلى اللسان أو القلم . ويمجد الانسان فى هذا اليسر الخطر غبطة ورضا ، على حين يشق العقل على نفسه ، وينحرف عن طريقه ، ويمتنع على الكسل حين يؤلف بين ألفاظ يؤذيه الجمع بينها. لذلك يلاحظ أن معظم الجمل التى نلقاها يبدو عليها مسحة

ظاهرة من المعنى ، لكنها لاتعدو المسحة الظاهرة ، ولا تقوى على المقاومة عند أول اختبار لها . وأغلب الظن أن يكفي في معظم الأحوال محاولة الإحداق بمعناها ومحاصرته ليتبين أنها خالية من المعنى .

ولا بد لهذا الاختبار من أن يقع . هناك يشوب العقل إلى نفسه فجأة بعد أن هام بين الألفاظ كأنه أنشئ بها ، فتعاوده الرغبة في أن يعتمد على شيء أشد ثباتاً . وهو يريد أن ينفذ خلال الألفاظ ليصل إلى الحقائق الواقعة ، أى يريد أن يلمس المعدن الذى لا مرأى فيه والذى يكفل هذه الكمية الوافرة من أوراق النقد المصرى . والواقع أن التجربة وحدها هى التى تبين لنا أن لفظاً من الألفاظ يساوى أكثر من الصوت الذى يحدثه حين تكشف عن أن اللفظ يستند إلى حقيقة قاطعة من تلك الحقائق التى دعمت دعماً نهائياً بالحواس أو بأى طريق آخر من طرق المعرفة والتحقق . هنالك يخضع كل أمر لامتحان شديد ، فيمتنع الخلط بين الأشياء أو إمكان انكارها أو رفضها . فكل ما يحاط به علماً قد عرف عن طريق اليقين . ويبقى في النفس أثر كأنه التثام للجرح الناشئ عن هذا الاستكشاف الذى قد يكون مألوفاً بالقياس إلى بعض الناس أو نادراً بالقياس إلى البعض الآخر . هكذا يحتفظ كل واحد بذكريات تتكون منها ثروته الشخصية ويقابل بين هذه الذكريات وبين الألفاظ حين يريد أن يتحقق من صحتها ومن قيمتها . فمن وراء المجموعات الرنانة من الألفاظ التى يصادفها فى القراءة أو الحديث يريد أن يصل إلى بعض المعلومات التى لا يمكن نقضها ، ولا يستسلم قبل أن يصل إلى غرضه . ولا ريب أن الأحاديث أو الصفحات التى تثبت للتجربة قليلة ؛ ففى مرحلة من مراحل التحقيق إذ يوالى الفكر التعمق فى البحث تبدو هذه الألفاظ مجرد تكديس وتنتثر الأعضاء التى تتألف منها الجمل قبل أن يتمكن من وضع يده على حقيقة يتثبت منها . تخيب حينئذ آماله ولا يبقى أمامه إلا تركيب نحوى وعناصر مضطربة يعجز عن ربطها ببعضها ببعض ويضطر أن يعيدها إلى المعجم لعجزه عن فهم ما بينها من علاقات . وفى الحق أنه لم يكن وراء ذلك شيء آخر : فمن ناحية قالب من هذه القوالب العادية الدارجة التى تضعها اللغة تحت تصرف الفكر فيستعملها الفكر ليصب فيه ما يريد الإفصاح عنه . ومن ناحية أخرى ألفاظ تلقتها الأذان فى غير وعى واستعملت على الفور دون أن يُدرك بها على معانٍ محقة قد استقصاها العقل

استقصاء دقيقاً ورتب بعضها على بعض كما ترتب النتائج على المقدمات ترتيباً لا سبيل إلى نقضه . يستألف تعليلاً زائفاً فبعض الشيء صحيحاً ولكن من ذا الذي لا يقنع بأن يتخذ من الألفاظ نفسها ضمناً يحميه من خداعها ؟ ومن ذا الذي يفرض على نفسه أن ينزل في كل مرة إلى الحقائق الأولى المؤكدة أو على الأقل أن يتحقق من أن الطرق التي تؤدي إليها مأمونة ؟ الخير في هذه الحالة التزام الصمت ، وأظن أن أرق الأذهان يضطر إلى ذلك في نهاية الأمر . ولكنني أقصر على الأذهان المتوسطة وما يحيط بها من ظروف عادية . فمن المحقق أن الذين يتخذون الاحتياطات الواجبة في مثل هذه الحالات قليلون نادرون . ثم إنه لن يستطيع أحد أن يتخذ دائماً هذه الاحتياطات في هذه الحالات نفسها . ينشأ عن ذلك أن تغمر الألفاظ كل شيء ، ولا ينتظر لاستعمالها أن تكون التجربة قد أسبغت عليها أقل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، فبمقدار ما يقل معناها بالقياس إلى الذي يستعملها يزداد ادعائه أن من حقه أن يفرغها في أية عبارة ، ظناً منه أنه بهذه الحيلة يزداد في معناها . فترى أحدهم يقول : « ما العدالة إلا قرار من . . . » كفى . فقد عرفت أن العدالة قابلة لتعاريف أخرى . عرفت ذلك مما يبذل من جهد ليحوّلني إلى عكس ما أعتقد . على حين يؤكد آخر : « إن الديمقراطية الحقيقية فخاها . . . » هأنذا قد أخذت حذري ؛ فقد اتخذ عدته إذا لم أوافق له ليزعم أن تصوّري للديمقراطية ليس التصور الصحيح . فما الداعي إلى المناقشة ! وثالث يكتب : « إن الذين يحسنون قراءة أفلاطون يتبينون في آثاره . . . » ما باله لا يعتمد على الصراحة فيقول إنني إذا لم أثبت في آثار أفلاطون ما تراءى له فذلك أثني لم أحسن قراءته . وهكذا . فبالألفاظ والعبارات يمكن كل إنسان أن يسترسل في الحديث والكتابة كما يشاء ، دون حاجة إلى تجربة أو تفكير . وفيهم يحرم الناس أنفسهم ذلك ؟ وإن منهم لمن أنفق حياته كلها لم يتحدث فيها إلا على هذا النحو . فما أيسر من أن يتحدث الإنسان عما لا يعرف . بل إن ذلك لا سبيل إلى تجنبه ، كما أنه أقل لفتاً للنظر من أي شيء آخر . فلن يزعج أحد إذا تحدث كاتب إلى قرائه عن شجر الساج الذي رآه وقد كانت الديدان تنحره ، أو إذا تألم في شكل رسمي من أن الفضيلة لا تلقى ثواباً في كل حالة . ومع ذلك فإن الديدان لا ترقى أبداً إلى شجر الساج ، والفضيلة لو أنها أثبتت دائماً لما كانت فضيلة ، بل

لأصبحت شيئاً يصعب التمييز بينه وبين المصلحة والتدبير الحاذق . ليراجع كل واحد نفسه . فأى الناس يستطيع أن يؤكد أنه لم ينكر بوجه من الوجوه ألا يكون للدائرة زوايا !

وما عسى أن يكون الأمر لو أنه لم يقتصر على عبارات وجيزة منعزلة ؟ فالذهن يميل إلى جمع الالفاظ بحيث تتبادل المعونة ، وتؤلف في النهاية شيئاً كأنه شبكة ضخمة يكاد يكون في وسعها أن تحمل محل العالم أو على الأقل أن تقف بين الانسان وبين المعرفة التي يحاول أن يبغيها عن هذا العالم . فهو معرض منذ نشأته لهذا الشرّك الذي تنصبه له المذاهب . فالالفاظ هي التي يراها أول الأمر ، وسرعان ما تكون حاجزاً يحجب عنه الواقع . وهذه الالفاظ تهاجم الفكر وتحدّره بعددها وخططها واضطرابها . وهي تسبق تجاربه بدلاً من أن تجيء في الوقت المناسب أي حين ينتهي من هذه التجارب ويشعر بالرغبة في تحقيقها والتثبت منها . وهكذا يعتاد في حديثه أن يعطى الالفاظ أهمية تفوق أهمية الأشياء . فلا يراها على أنها إشارات لا تعدو مهمتها التعبير عن هذه الأشياء . هنالك يستلزم الأمر للتخلص من سلطان الالفاظ صرامة فكرية نادرة . وكيف لا يكون الحال كذلك وهذه الالفاظ تغزو كل رأس مسكين أول ما يتنبه إلى نفسه ! فالمدرسة ، والصحف ، والكتب ، والإذاعة ، كل شيء يتأمر على ملئه بضجيج الالفاظ بدلاً من ملئه بضجيج العالم . وهذا الرأس لا يتلقى شيئاً إلا عن طريقها . وها هو ذا قد أعدّ إعداداً طيباً ليصير ضحية لكل خدعة من خدع الالفاظ . بل أكثر من ذلك فقد يحدث أن يطمش لهذه الحالة . فالفكر الذي به بعض النشاط سرعان ما يعرف كيف يستفيد من ذلك . وهذا الجمهور قد احتشد في الميدان العام فاغراً فاه ، ينتظر حضور المشعوذ وما سيعرض عليه من الأعيب . ولن يعدم المشعوذ أغراً يخدعهم بحيلة .

روحيه لبارا

(للبحث بقية)

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحانه